

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة العربية

اشتد الصراع الأيديولوجي ، وازداد حدة في العالم الاسلامي بعد الحرب العالمية الثانية ، اذ عندما لاح في الأفق أن الاستعمار القديم قد أدار ظهره ، وأن قواته تستعد للرحيل عن المناطق ، التي احتلتها سنين طويلة ، ظن أصحاب الأيديولوجيات ، أن الفرصة سانحة للانقضاض على السلطة ، وتثبيت عقيدتهم في المجالات المختلفة .

تبلور هذا الصراع ، فاتخذ شكلين رئيسيين ، أحدهما تيار يميني ، والآخر يساري ، واستمر الكفاح بينهما مداً وجزراً فترة من الزمن ، ولكن سرعان ما أصيب التيار اليميني بنكسة أخرجته من ميدان الصراع ، وكان السبب فيها عدة عوامل منها :

- ١ — نقص خبرة قادته ، وقلة تجاربهم في المجال السياسي .
- ٢ — نشوء الخلاف بينهم ، ويرى بعض الخبراء أن هذه الظاهرة كانت نتيجة لتسرب عناصر انتهازية ، الى داخل صفوف القيادة ، ظنا منها أن هذا التيار أصبح قاب قوسين أو أدنى من تولي السلطة .
- ٣ — اصطدامهم اصطداماً مباشراً مع القوى الوطنية الجديدة التي تسلمت السلطة من الاستعمار ، وهي بطبيعة الحال لا تميل الى هذا التيار نتيجة تأثير موجات دعائية أجنبية .
- ٤ — اجماع المعسكرين ، الشرقي والغربي على ضرورة القضاء على التيار اليميني ، لأن كلا منهما يجد فيه خطراً على وجوده في منطقة العالم الاسلامي .

خلت الساحة من اليمين ودعاته ، فتهيأ الجو للبسار ، فتغلغل بين صفوف الجماهير ، ولكن لم يرجع انتشار ايديولوجيته بين شعوب العالم الاسلامي الى هذا السبب فقط ، بل كان هناك عامل آخر — وهو عامل رتبسي على ما أعتقد — ، ألا وهو طبيعة الظروف الدولية ، التي نشأت عقب الحرب العالمية الثانية ، فقد هيأت تلك الظروف المجال للشيوعية ، ودعاتها ليلعبوا دوراً نشطاً في الساحة الاسلامية سياسة وتوجيها ، اذ تولي السلطة شباب ، رأوا من الوطنية معاداة المعسكر الذي قاست منه الشعوب أيام الاستعمار ، غير أن قوتهم لم تكن كافية للوقوف أمام

دول كبرى ، فاستعانوا بالمعسكر الشرقى ، فلبى الطلب بسرعة ، لينشر أيديولوجيته بين شعوب العالم الإسلامى . الذى كان — حتى ذلك الحين — منطقة مغلقة فى وجهه •

فتح الباب . وأعطيت له اشارة الضوء الأخضر ، فدخل بمساعداته العسكرية والفنية : ثم تغلغل حتى وصل الى مراكز التوجيه والاعلام ، فركز نشاطه فى هذا المجال . ليحول المجتمع الإسلامى الى اعتناق أيديولوجيته وسلك فى ذلك طرقا ملتوية — تجنباً لرد فعل الجماهير ، التى تعتقد أن الشيوعية تحارب الأديان — متخفياً وراء شعارات وطنية ، ومع ذلك لم يستجب له الا القليل ، فأوهم العامة أن الشيوعية لا تحارب الإسلام ، وكانت هذه مجرد مناورة تخفى وراءها الحقيقة الصارخة ، فالشيوعية كانت — ولا زالت ، وستظل — تحارب الإسلام ، فقد نشرت الجمعية الاتحادية لنشر العلوم السياسية والفنية فى موسكو فى عام ١٩٦٨ م كتيباً (١) بقلم : « كليوفيتشى » تحت عنوان : « الإسلام : نشؤه ومستقبله » جاء فيه :

« ان شعوب الاتحاد السوفييتى اعائثيين مع بعضهم بمودة أخوية ، قد تغلبوا على التأخر الاقتصادى والثقافى ، الذى كان مستولياً عليهم فى الماضى ، وأحرزوا تقدماً اقتصادياً م يسبق له مثيل ، وثقافة زاهرة شأن البلاد الاشتراكية • وقد تغبر أيضاً المظهر الأدبى للشعب السوفييتى ، فأصبحت تعاليم « ماركس » و « لينين » العظيمة الخاصة مطبقة العمال ، أساساً — لا ينقض — لفكرتهم عن الهيئة الاجتماعية • ولكن لا يمكن الانكار بأنه لا يزال راسخاً فى ذهن بعض الناس بقايا من النظام الاستغلالى ، التى لا تلاءم المظهر التقدمى للشعب السوفييتى ، المستند على العلم والاختبار •

« ان محاربة هذه البقايا التى لا تختص بطبقة معينة من الشعب فى بلادنا هى جزء لا يتجزأ من التعاليم الشيوعية للعمال ، ولها أهمية عظمى فى وقت تتحول فيه تدريجياً من الاشتراكية الى الشيوعية • ومن ضمن هذه البقايا الخرافات الدينية المخافة للعلوم •

(١) وزع هذا الكتيب فى كثير من بلاد العالم الإسلامى ، فقد أطلعتنى أحد الطلبة فى جامعة أحمد بلو بنيجيريا على نسخة منه . وأخبرنى بأنه يباع فى العاصمة « لاجوس » •

« ويمثل الدين الاسلامى احدى هذه البقايا الدينية المحافظ عليها من قبل جزء من سكان جمهوريات آسيا الوسطى فى القوقاز ، والقفقاز ، وبتاتارية ، وباشكيرية ، وكذلك فى بعض مناطق الجمهوريات السوفيتية الفيدرالية الاشتراكية الروسية •

وينتشر هذا الدين فى الخارج ، وعلى الأخص فى عدد من البلاد الآسيوية والافريقية » •

ولم يكتف « كليوفيتش » بهذا ، بل هاجم القرآن ، والسنة النبوية هجوما مباشرا حيث قال :

« يعتبر القرآن والسنة والشريعة كتب الاسلام المقدسة ، وقد ألفت هذه الكتب فى القرون الوسطى فى زمن سيادة الاقطاع ، وتبرز تعاليم هذه المؤلفات الجور الطبقي ، وظلم الشعوب المغلوبة ، وليست هذه المؤلفات الدليل الوحيد على الماضى الأليم ، اذ لا تزال مبادئها تطبق كقوانين فى البلاد التى تتخذ الاسلام دينها الرسمى » (١) •

ثم بين الموقف الحقيقى للشيوعيين فى الشرق فقال :

« وقد اختلف التقدميون الشرقيون فى آرائهم كليا مع تعاليم القرآن » (٢) • ورمى بالتأخر كل من يتمسك بالتعاليم الدينية :

« ويجب الملاحظة هنا بأن أى دفاع عن الأفكار الدينية ليس الا مجهودا لمعاوضة التأخر الاجتماعى ، الذى أصبح — أو على وشك أن يصبح — من ذكريات الماضى » (٣) •

وادعى أن الايمان بالله لا قيمة له فى المجتمع :

« ولا تتفق مع التقدم الفكرة القائلة بأن الاعتقاد بالله له قيمة فى الحياة الاجتماعية ؛ وأوضح لينين المعنى الحقيقى لهذه البيانات فقال :

« ان فكرة وجود الله كان مفعولها دائما ، اخماد الحس الاجتماعى ، وتبديل شىء حى بشىء ميت ، وما هى الا عبودية من أسوأ الأنواع ، ولم ترتبط فكرة الله الفرد بالمجتمع ، بل قيدت الطبقات المظلومة بالاعتقاد بالهية الظالمين » (ص ٩٣ مجلد ٣٥ من مؤلفات لينين) (٤) •

• (٢) المصدر السابق ص ٣٩

• (٤) المصدر السابق ص ٤٥

• (١) المصدر السابق ص ٢٦

• (٣) المصدر السابق ص ٤٥

ثم أفصح عن مراده ، ألا وهو بيان أن الاسلام يقف حجر عثرة في سبيل نشر المبادئ الشيوعية :

« ويستنتج من دروس تاريخ ظهور الاسلام وماهيته الاجتماعية بأنه كغيره من الأديان الأخرى ، عبارة عن فكرة محافظة تناقض العلوم ، وتغل أيدي الناس عن النشاط والاقدام على العمل المثمر ، وتعارض نشر المبادئ السوفييتية الحيوية في العالم ، أي « الماركسية » و « اللينينية » ، ويمكن نسب تلك المميزات الى جميع عقائد وطقوس الاسلام ، وأعياده العديدة ، وصيامه وزياراته للأماكن المقدسة ، وعبادة الأئمة وغيرها من العادات • وتتعلق جميع هذه القواعد والعادات ببقايا الآراء الشرقية القديمة ، القائلة بعزل الانسان عن الانسان ، والمشبعة بالفكرة الضالة ، المضرة بأن الله هو لذى يضمن برحمته حياة هادئة ، ومرفهة للبشر ، لا اجتهد الانسان » (١) •

وأوضح أن الشيوعية مستمرة في كفاحها ضد الدين :

« ويستمر الحزب في الكفاح ضد المعتقدات الدينية (٢) باعتبارها منافية للفكرة العلمية عن الدنيا •

« ومن المستحيل احراز التقدم الحقيقي ، قبل التغلب على البقايا الدينية وغيرها من الآراء ، التي أصبحت بالية ، وكذلك النظريات التي تضلل ذهن الانسان •

(١) المصدر السابق ص ٤٩ •

(٢) ولهذا يطرد الحزب الشيوعي كل عضو ، يثبت أنه يحافظ على اقامة شعائر الاسلام ، فقد نشرت جريدة الأخبار القاهرية في عددها الصادر في ١٧/٧/١٩٧٤ م ما يلي :

« موسكو - رويتر : ذكرت الأنباء الصحفية ، التي وصلت الى موسكو اليوم أن عددا من الأعضاء العاملين في الحزب الشيوعي بمنطقة قوقازية نائية ، قد طردوا من الحزب بسبب مشاركتهم في الاحتفالات الدينية الاسلامية •

وجاء في مقال نشرته صحيفه « زوربا فيتكا » بعددها الصادر يوم الجمعة الماضي ، أن عدد المؤمنين في منطقة « أزهاريا » الواقعة على البحر الأسود ، بالقرب من الحدود التركية - قد تزايدوا بدرجة كبيرة في العام الماضي • وذكرت الصحيفه أن مدير احدى المزارع الجماعية قد فصل من الحزب ، كما تعرض بعض رجال الحزب الآخرين لتأنيب قاس بسبب انخفاض مستوى الدعاية الالحادية ، التي يقدمونها بسبب مشاركتهم في الطقوس الدينية •

« ان الغاء الدين ، الذى ما هو الا سعادة وهمية للناس ، عمل ضرورى لجلب سعادتهم الحقيقية » (١) . (صفحة ٤١٥ المجلد الخامس من مؤلفات ك . ماركس و ف . انجيلز الطبعة الثانية) (٢) .
ألا تدل هذه النصوص على أن الشيوعيين فى الشرق الاسلامى يناوون . ويلعبون بعقول الجماهير حين يدعون أن الشيوعية لا تحارب الدين ؟

أما دعواهم « التقدمية » ، فمغالطة أيضا ذلك أن ظروف القرن التاسع عشر — الذى ظهرت فيه دعوة « ماركس » — الاقتصادية والاجتماعية ، قد تغيرت الآن كلية ، فاذا نودى اليوم بتطبيق مبادئ « ماركس » كحل لمشاكل المجتمع فهى دعوة رجعية ، لأنها كانت لمعالجة مشكلة . لم يعد لها وجود الآن .
وقد وضح ذلك الأستاذ الدكتور محمد البهى فى كتابه : « تهافت الفكر المادى التاريخى » (٣) ثم قال :

(١) أى سعادة تلك التى يعد بها ماركس المجتمع الشيوعى ؟
أهى التعذيب والارهاب ؟

أم كبت الحريات ، واشاعة الرعب والفرع بين المواطنين ؟
أم هى الفقر والحرمان التى تعانیه الشعوب الخاضعة لنظام الحكم الشيوعى ؟؟؟

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٣) رسم الدكتور صورة للمجتمع الأوروبى فى دول غرب أوروبا فى القرن التاسع عشر ، فبين أن رأس المال كان يوجه السلطة العسكرية ، التى امتد سلطانها على مستعمرات فى افريقيا وآسيا .
وعلى امتداد سنوات الاستعمار الغربى ، تكدست ثروة القارتين الاقتصادية فى أوروبا ، وتحكم فيها رجال الصناعة فى البلاد الغربية ، ورجال المال والتجارة الذين توسعوا فى الأعمال التجارية . وعندما دخلت الآلة مجال الصناعة ، نافست العمل اليدوى ، فتحول أصحابه الى أجراء لدى أصحاب الصناعة الآلية الكبيرة .

تحول رأس مال الصناعة — نتيجة المنافسة — فأصبح فى يد قلة من أصحاب رؤوس الأموال ، وبالتالي تجمعت لديهم الأرباح الواسعة :

من استعمار القارتين الافريقية والآسيوية .

وتسخير المواطنين فيهما فى خدمة الصناعة الأوروبية .

وأصبح هنا فى أوروبا الغربية ثراء فاحش ، يتصرف فيه عدد قليل من الأثرياء ، ووقف مد هذا الثراء عند هذه القلة من أصحاب رؤوس الأموال =

« ان كارل ماركس قد ربط تفكيره الفلسفى بأوضاع القرن التاسع عشر الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعلمية ، ولذا فصلاحيته اتجاهه فى حلول المشاكل يقصر عن أن يتجاوز هذه الأوضاع ، ويقصر عن أن يمتد الى القرن العشرين ، فيعالج مشاكلها •• واذا بودى اليوم فى المجتمعات الماركسية اللينينية فى شرق أوروبا — أو فى أى مجتمع يفرض فلسفة ماركس ولينين فى افريقيا وآسيا — بـ« التقدمية » فى نظام الحكم عن طريق التبشير بالقوة العمالية العالمية ، وأيضا ثورية الطبقة العاملة ، فذلك ينطوى على دعوة الى الرجوع بـ« التطور

= وكلما زاد ثراؤهم ، قوى نفوذهم فى لسياسة الدولية ، وازداد من عداهم فقرا وحرمانا ، وضعفا فى رعاية صحتهم ، وأحوالهم الاجتماعية •
كانت هذه هى مشكلة القرن التاسع عشر ، ورأى ماركس أن حلها يجب أن يكون :

(أ) فى مزيد من اثاره حقد العمال على أصحاب رؤوس الأموال •
(ب) وفى دعوتهم الى تكبيدهم الخسائر ، والحاق الضرر بأموالهم ، وصدانهم عن طريق الاضراب •
(ج) وفى الدعوة الى الانقلاب ، والاطاحة بأصحاب رؤوس الأموال وبالنظام السياسى فى الحكم •
ولكن طرأ تقدم اجتماعى على المجتمع الصناعى فى الغرب فى القرن العشرين — وبالأخص فى بداية النصف الثانى منه — قلل كثيرا من الفجوة فى العيش والمتعة بالحياة ، والنظرة الى الانسان التى ساءت حاله على عهد فلسفة ماركس :

فارتفعت أجور العمال •
وزادت الخدمات العامة التى تقدم لهم •
وتحددت ساعات العمل اليومى والاسبوعى •
وأصبح لهم الحق فى الاجازات السنوية •
وزادت الرعاية الاجتماعية ، فتأمين ضد العجز والشيخوخة وغرض لتعليم أبنائهم فى المراحل المختلفة •• الخ •

وكاد وضع العامل الحالى يجعل المصنع شركة بينه وبين صاحب رأس المال ، وليس بينهما فارق ، الا أن أحدهما يستخدم كل طاقاته فى الإدارة ، والثانى يستخدمها فى الإنتاج •

ان وضع العامل فى النصف الثانى من القرن العشرين يختلف تماما عن وضعه فى القرن التاسع عشر ، على عهد كارل ماركس ، فلا مجال اليوم لدعوته ، الا اذا رجعت عجلة التاريخ الى القرن التاسع عشر ، أى فهى دعوة رجعية مضى زمنها (انظر : تهاافت الفكر المادى التاريخى ص ١٥ — ٣٤) •

الاجتماعى « والتكنولوجى . والوقوف به عند حد القرن التاسع عشر ، حتى يمكن أن ينكشف الظلم فى استغلال العامل من صاحب العمل ، ويبدو البعد فى الهوة السحيقة فى وضع كل من العامل ، وصاحب رأس المال فى الحياة ، والشقاء والاستمتاع فيها ؛ وحتى يمكن أيضا أن ترى الحاجة الشديدة الى العمل اليدوى . وسيطرته على المجهود الانسانى فى مجالات الانتاج الصناعى على الأخص ، مع رفاهية أصحاب رؤوس الأموال ، دون أن يكون لهم أثر سوى أنهم يملكون المال .

« وعندئذ فقد يكون لفكر ماركس مكان فى حل ما بين العامل ، وصاحب رأس المال من مشاكل ، هى مشاكل الظلم والانحراف فى استثمار المال ..

« ان من التناقض أن تلتصق حلا ، كان بالامس لمشكل لم يعد له وجود اليوم ...»

« ان ماركس ولينين يعينان التمسك بالدين ، ويصفان التمسك به بأنه « رجعية » — أى رجوع الى الخلف والنوراء — مع أن صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ، ولا بمشاكل لا تتكرر ، اذ هو للطبيعة انبشيرية ، بما لها من خصائص أينما وجدت ، وفى أى وقت كانت ، وهدفه أن يحول دون الانحراف فى السلوك سواء فى المال ، أو فى العلاقات انبشيرية ، بينما فلسفتها قد ارتبطت بمشاكل اقتصادية معينة ، وأوضاع معروفة ، خلقتها ظروف خاصة ، ليس لها طابع الاستمرار ، وهى ظروف القرن التاسع عشر والثورة الصناعية التى تبدلت تماما فى القرن العشرين .

« أفلا يوصف ذلك الذى ينادى بالماركسية اللينينية — وقد اختلفت الأوضاع والظروف الآن ، وذهبت تلك الأخرى التى حملت على الفكر الفلسفى الماركسى — بأنه رجعى ؟

« وأنه يريد أن يعيد عجلة تاريخ القرن العشرين الى القرن التاسع عشر(١) ؟



وكتاب « حقائق عن نظام الحكم الشيوعي » (١) من أهم الكتب — ان لم يكن أهمها — ، لأنه يبين حقيقة هذا النظام ، ويوضح لنا التناقض بين الأحلام التي ترسمها الدعاية الشيوعية ، وبين الواقع الأليم الذي يعيش فيه مواطنو الدول ، التي تطبق الأيديولوجية الماركسية ، نظاما في الحكم والتوجيه ، ومما يدل على أهمية هذا الكتاب ، أنه ظهر منه ثلاث عشرة طبعة باللغة الألمانية في الفترة من عام ١٩٥٥ م الى عام ١٩٦٢ م ، بلغ مجموع ما وزع منها ١٤٦ ألف نسخة ، فقد اهتم به القراء اهتماما ، قل أن يناله كتاب في القرن العشرين ، وذلك لأهمية القضايا التي عالجها •

ويجب على كل من يواجه التيار الشيوعي ، البراق في مطهره ، الاطلاع عليه ، ليعرف الحقيقة واضحة ، فهو بقلم شيوعي أصيل هو : « فولفجانج ليونهار » نشأ في أحضان الشيوعية ، اذ كان يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة عندما غادر ألمانيا — منفيا — مع أمه متوجها الى موسكو ، فتربى في مدارسها ، ودرس المذهب الماركسي ، واثق بمنظمة الشباب في الحزب الشيوعي ، وتدرج فيها حتى وصل الى مراكز القيادة حيث عاد — بعد الحرب العالمية الثانية — مع أول فوج الى ألمانيا ، ليتصدر مراكز التوجيه والقيادة ، لكنه ما لبث أن ضاق ذرعا بالدكتاتورية الشيوعية ، فهرب ، وسجل أحاسيسه ، واتجاهاته الفكرية ، في هذا الكتاب ، وفي بعض تعبيراته عن هذا التحول يقول :

« لقد حاولت — وأنا مدرك ما أقدمت عليه تمام الإدراك — أن أقدم صورة المقابلات والمناقشات ، ولأحداث ، والتجارب لتي عشتها ، كما رأيتها آنذاك ، وتصورتها ، وكما شعرت بها ، وفكرت فيها •

وأعتقد أن القارئ سيفهم من خلال هذا كله ، معنى الكفر بمذهب « ستالين » بالنسبة لانسان تربى على هذا المذهب ، فهو حكم في قضية

(١) العنوان الأصلي للكتاب هو : « الثورة تطرد أبناءها » ، فغيرته الى أنه كان ابنا من أبناء الثورة ، فضايق ذرعا بالاجراءات التي تنفذها السلطة باسم الشيوعية ، فهرب منها ، ووصف هروبه بأن الثورة هي التي طردته ، « حقائق عن نظام الحكم الشيوعي » لأن المؤلف نظر الى الموضوع من ناحية اذ لم تحقق أمله فيها ، أما العنوان الذي اخترته فيرمز الى أن ما ورد في الكتاب هو بيان وشرح لطبيعة النظام الشيوعي ، على لسان شيوعي •

انشك . التى اعترتنى سنين طويلة . وسبب لى من الآلام ، والمضايقات ما ناء به كاهلى •

« لقد كان صراعا داخليا بين الضمير المتألم ، والمبررات التى تحاول تهدئته ، ولكن عندما وصل المد والجزر بين الطرفين الى ذروته ، أعلق باب التراجع ، وعجزت المبررات عن كبح جماح صاحب هذا الضمير عن التحرك تجاه الحد الفاصل — وان كان يعانى فى أثناء ذلك من صراع داخلى حاد — الذى يصل من يعبره الى تصور العالم الحر ، عالم لا يسيطر عليه هذهب ستالين » (١) •

وليس كفره بالنظام السوفييتى حالة فردية ، بل هى ظاهرة عامة لدى كثير من الشبان الذين اعتنقوا هذه الأيديولوجية ، أملا فى الوصول الى جنة على هذه الأرض ، فاذا هى عذاب وحرمان ، فكفروا بها وعارضوها :

« استمرت عضويتى فى هذه المنظمة السوفييتية (يعنى منظمة الشباب) ست سنوات كاملة ، اعترتنى أثناءها موجات من الشكوك فى نظم وتوجيهات الحياة السياسية فى الاتحاد السوفييتى ، وكنت أعتقد أننى الوحيد ، الذى يعتقد هذه الأفكار ، التى تعتبر زندقة ، وكفرا بالنظام السوفييتى ، لكنى تبينت بعد مدة طويلة — عندما أنشأت صداقات حميمة مع كثير من الشبان ، وارتفعت الكلفة بيننا ، فتحدثنا بصراحة — أننى لم أكن وحدى الذى يعتقد مثل هذه الأفكار •

« وضحت الأمور شيئا فشيئا — وأنا متأسف ، اذ اضطررتى الظروف الى عدم ذكر شىء ، أو وصف قد يفهم منه توضيحا لمن أعينهم ، حتى لا أعرضهم للخطر ، وهم اليوم فى مناصب عليا — عندما التقيت بالكثير من الشباب المعارض ، اعترف لى أحد هؤلاء ؛ بأنه لا يؤمن بالأيديولوجية التى تعتنقها الدولة ، وتعرفت على آخرين ، كانوا ماركسيين ، ولينييين ، اعتنقوا تعاليم ماركس وقدموها ، أما اليوم فيقفون مع الجبهة المعارضة للنظام فى كثير من المسائل والمبادئ الأساسية » (٢) •

ويكشف النقاب عن التناقض فى المذهب الشيوعى ، بين الدعاية

(٢) المؤلف ص ٨٢ •

(١) المؤلف ص ٤ - ٥ •

والتطبيق ، اذ تعد الشيوعية بازالة الطبقات ، في حين أن الطبقية موجودة في نظامها ، فالحكم مقصور على طبقة معينة لا يتعداها :
« فالطبقة البيروقراطية الحاكمة ، التي تكونت منذ نهاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير ، التي امتدت من عام ١٩٣٦ م حتى عام ١٩٣٨ م ، والتي أطاحت بـ « انجموعة القديمة » ، بدأت هذه الطبقة الآن في عام ١٩٤٠ م في اتخاذ وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول « الطبقات الأخرى » لمشاركتها في الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة ، والامتياز الطبقي وقفا على أبنائهم ، يرثونه من بعدهم » (١) .

ووضحت ظاهرة الطبقية أيضا في معرفة أخبار الدولة ، فقد فرضت الرقابة الشديدة على تسرب الأخبار الى الجماهير ، فهم لا يعلمون شيئا عن الأحداث التي تقرر مصيرهم ، اللهم الا النذر اليسير ، فاذا علا الفرد درجة في سلم الطبقات ، انكشفت له أسرار أكثر ، ونتج عن ذلك حرص كل واحد على توطيد علاقة بينه وبين من يطلعون على ما يجري خلف الكواليس :

« نشأ عن طريق تقسيم الناس الى درجات ، بالنسبة للحصول على معلومات ، نوع من الشعور بضرورة الانتماء الى مجموعة لا تتفصل عن مراكز السلطة في الاتحاد السوفييتي ، ومما لا شك فيه أن الالتفاف حول شخصيات بارزة في الحزب هام جدا . وخاصة في الاتحاد السوفييتي ، حيث توجه جميع وسائل الاعلام ، من صحافة واذاعة ، وليس لجماهير الشعب أى مناقذ للأخبار الا النذر اليسير ، أى لا يذاع الا ما لا يزعج السلطة الحاكمة » (٢) .

ومن مظاهر الطبقية أن أعضاء احزب لا يتحملون ما يقاسيه الشعب . اذا أصيب الوطن بكارث ، أو مر بأزمات ، بل يحصلون على كل ما يريدون ، ولو كان الشعب يموت جوعا ، يبدو ذلك في وصف المؤلف بؤس الحياة في الأحياء القديمة وبيان طبيعة حياة القادة في الفنادق الكبيرة ، ثم يعقب على ذلك قائلا :
« وبدا التباين شاسعا بين الجو في هذا الفندق . وبين الأحياء

(٢) المؤلف ص ١٩٦ .

(١) المؤلف ص ١١٣ .

القديمة في « كارجندا » ، والأكوخ المبنية من الطين للاقطاعيين المنفيين ، ولا يمكن لعقل تصور امكان وقوعه ، لو لم يره في الاتحاد السوفييتي « (١) » .

وتعد الشيوعية — عن طريق أبقاها الدعائية — بالديمقراطية الشعبية ، فلأفراد حرية تامة — ان هي تولت السلطة — في التعبير ، وابداء الآراء ، ولجميع أفراد الشعب حرية في الانتخابات ، وفي اختيار ممثليه في السلطة ، بل له الحرية أيضا في توجيه دفة الحكم وفي التشريع ، وفي تحديد أهداف الدولة ، ولكن الواقع يؤكد أن الدكتاتورية سمة من سماتها ، وتقديس الزعماء ، وعبادتهم ركن أساسي في تكوين سلطتها ، فلا حرية في الآراء ، ولا في الانتخابات ، ولا تسمح السلطة الشيوعية الحاكمة بحرية الاجتماعات ، والصحافة مقيدة في مجتمعاتها ، تردد ما يقوله الزعماء ، فتموت القدرات الخلاقة ، بينما تعيش الطفيليات تصفق للزعماء ، ويكون في ذلك قضاء على فاعلية المجتمع في الخلق والابداع :

« ... وبكبت الحياة السياسية في جميع أرجاء الدولة ، يزداد استرخاء الحياة عند السوفييت باضطراد مستمر ، فبدون الانتخابات العامة ، والحرية الاجتماعية ، وحرية الصحافة ، ونضال الآراء الحرة ، تموت الحياة في كل مؤسسة عامة ، وتصبح حياة ظاهرة ، تكون البيروقراطية فيها هي العنصر الوحيد الذي يعمل ، فتجمد الحياة العامة تدريجيا ، ويحكم ويوجه فيها حفنة من زعماء الحزب المستوقدين نشاطا ، الذين تستولى عليهم مثالية لا حد لها ، وتقود حفنة من بينهم — يتمتعون بذكاء خارق — جماهير العمال من وقت لآخر الى المؤتمرات للتصفيق لخطب الزعيم ، وللتصويت بالاجماع على القرارات التي تعرض عليهم ، وفي الحقيقة هي مجموعة نفعية ، وهو ديكتاتور لا شك في هذا ، ولكنه ليس ديكتاتور البوليتاريا ، بل ديكتاتور حفنة من السياسيين » (٢) .

ولم يقتصر أثر الدكتاتورية الشيوعية على سلب الأفراد حريتهم ، بل سلبهم الطمأنينة ، فأشاع الرعب والهلع في صفوفهم ، ففقدوا القدرة على اختيار الطريق الذي يحميهم من جبروت السلطة وبطشها :

« انقلبت موازين العقل واختلت قواعد المنطق ازاء هذه الأحداث ،
اذ من المعروف أن الذين يعيشون في ظل الديكتاتورية ، ويقومون بنشاط
ضدها ، يحاولون بثنى الطرق انكار هذا أمام المحقق — عندما يساقون
بتهمة عدم الولاء للسلطة الحاكمة — ويسلكون كل سبيل يبرهن على
أنهم برآء من هذه التهمة ، حتى لا يقع عليهم العقاب الصارم ، ولكن
في الاتحاد السوفييتي يفكر المرء في حلق قصة طويلة خيالية تدينه ،
يقولها أمام المحقق اذا ما اعتقل ، على الرغم من أنه لم يرتكب شيئاً
ضد نظام الحكم » (١) .

لأنه اذا لم يعترف سيوقع عليه لعقاب الصارم . فليخترق قصة
يكون من شأنها ، ايها المحقق أن عقوبة ما ارتكبه من أعمال ضد السلطة ،
أخف نوعاً من الأحكام الصارمة . وهكذا يعترف الأبرياء بارتكاب أعمال
لم يرتكبوها ، أملاً في تخفيف العقوبة .

ولا يدين الشيوعيون بالولاء لأوطانهم ، بل هواهم مع الانحد
السوفييتي — أو مع الصين — ينفذون ما يرسم لهم ، فهم كتقطع
الشطرنج ، صورهم في الأوطان . أما محرك تلك الصور فهو في موسكو
أو بكين ، اقرأ معي هذا الحوار الذي دار بين المؤلف وبين أحد زعماء
الحزب الشيوعي الألماني . حين ثار المؤلف على ربط ألمانيا الشرقية
بعجلة الاتحاد السوفييتي ، ونادى بالمساواة بينهما :

« ولكن يا « فولف جانج » ! فلنقف على أرض الحقيقة العارية !
ما معنى المساواة هنا ؟

أعرنى انتباهك ! فالنضال الذي انتشر في العالم ، هو بكل أبعاده
لعبة شطرنج كبيرة » ...

وأشار بيده الى لوحة الشطرنج .

« ... يوجد أبيض وأسود على هذه اللوحة ، ويواجه اللاعبان
أحدهما الآخر بأشكال مختلفة من قطع الشطرنج ، تختلف فيه كل قطعة
عن الأخرى باختلاف شكلها . وطريقة حركتها على اللوحة . ولكن تحريك
هذه القطع لا يمكن أن يكون الا من مركز ، وهذا المركز هو موسكو
فقط ... يجب أن نقرب من الموضوع مجردين من أي اتجاه ، فلست

قياديا جديدا في الحزب • هل لاحظت مرة شيئا خاصا في سمات الاتحاد السوفييتي ، واتحاد الجمهوريات السوفييتية ؟

لم أفهم بسرعة ، ماذا يريد بهذا السؤال !

« لا يظهر مفهوم روسيا هذه السمات • وليس هذا من باب المصادفة ••• وبهذا مهد الطريق للبلاد التي تتحول فيما بعد الى الاشتراكية للانضمام لهذا الاتحاد » •

« هل تعتقد أننا — اذا وصلت بلاد الديمقراطية الشعبية ، وفيما بعد المنطقة الألمانية أيضا الى أسس الاشتراكية — نستطيع أن نعيش كدولة مستقلة ، لا ترتبط بالاتحاد السوفييتي ؟

يجب أن نمارس سياسة واقعية في هذه الأشياء • لا نستطيع هنا — فيما بيننا — أن نتحدث بصراحة ••• من الممكن — لا أقول يجب أن يكون هذا — أن تتضم بلاد الديمقراطية الشعبية فيما بعد — كجمهوريات جديدة — الى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الشعبية • وطبعاً لن نقول هذا اليوم ، ولا ينبغي أن تذكر ذلك لأحد اطلاقاً ، ولكن يجب أن تعلم ذلك على الأقل •

« هذه هي الحقائق ، وليست المناقشة على أسس متساوية بين انبلاد الاشتراكية » (١) •

وأكتفى بهذه المقتطفات لأترك القارئ يعيش مع أحداث الكتاب كاملة ، كي تتضح أمامه طبيعة نظام الحكم الشيوعي ، حتى لا ينخدع اذا ما سمع أبواق الدعاية الشيوعية تبني له قصورا خيالية ، لا صلة لها بالواقع المر •

ويجب على كل مسلم — بل على كل من يستطيع قراءة العربية ، أيا كانت جنسيته ودينه — أن يقرأ هذا الكتاب ، حتى لا يقع فريسة للأخطبوط الشيوعي ، فيسلبه حريته ، وأنسانيته •

كما يجب على المعاهد التي تخرج الدعاة أن تعيد النظر في مناهجها ، فتقرر على طلبتها دراسة التيارات الفكرية الحديثة ، وفي مقدمتها الشيوعية — بما في ذلك ما يجري داخل البلاد التي تسيطر عليها —

والا فستخرج دعاة غير قادرين على القيام بمهمة الداعية في هذا العصر
اذى يتعرض فيه الاسلام لحملات متوالية من زنادقة العصر الحديث •
وهذا الكتاب هو من أحسن الكتب التي تزود الداعية بمعلومات ،
هو في أشد الحاجة اليها . لمواجهة هذا التيار الالحادى ، اذ هو يمهده
بحقائق تكون له :

— سلاحا عندما يواجه دعاة الشيوعية •

— ومصباحا يزيل به الغشاوة عن أعين الذين خدعوا بالدعاية
الشيوعية البراقة ، كى يروا واقع المجتمع الشيوعى المر ، فيدركوا مدى
افتراءات أبواق الدعاية الشيوعية فى العالم العربى والاسلامى •
ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ...

كانو فى : ١٣ ربيع الأول ١٣٩٦ هـ

١٤ مارس ١٩٧٦ م

محمد عبد الغنى شامة

مقدّمات الكتاب

كان مقرراً في ١٥ مارس سنة ١٩٤٩ أن ألقى محاضرة في المعهد العالي للدراسات الاشتراكية ، التابع للحزب الاشتراكي الألماني ، وفي قاعة المحاضرات جلس المشتركون في الدورة وأمامهم قراطيسهم ينتظرون المحاضر يتجهون بأبصارهم كلما بدت حركة تدل على قدومه ، طال انتظارهم الى أن بدا لهم أن لا فائدة .

أين الزميل ليونارد ؟

بحثوا عني في مسكني الملحق بالمعهد ، ولما لم يجدوني اضطروا الى اعلان الغاء المحاضرة ، فساور الشك بعضهم ، وتهامسوا :
هل ولى « وولف جانج » ؟

ثم كلفت سكرتيرة المعهد بالبحث عني في مسكني في برلين ، فلم تنتهت هي الأخرى الى أي أثر يدل على . وسرعان ما أصبح الشك يقينا ، فتحدثوا بنبرة الواثق المتأكد :

« هرب وولف جانج ليونهارد » *

انتشر نبأ هروبي انتشار النار في الهشيم ، فساد الارتباك جو المعهد ، وأصيب أعضاء الحزب بالدوار ، فقد كان الهاربون — حتى ذلك الحين — عددا قليلا من قادة حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني ، ومعظمهم كان عضوا في الحزب الديمقراطي الاشتراكي (١) ، ولكن المسألة الآن تتعلق بهروب مسئول في الاتحاد الاشتراكي الألماني ، تربى في موسكو ، فثرب لبين الشيوعية وتربى في أحضانها : أضف الى ذلك أمرا آخر ، ذلك أن الهاربين السابقين ، كانت وجهتهم برلين الغربية ، وتحدثت عنهم صحافتها باسهاب ، أما هروبي فلم تذكر صحافة برلين الغربية عنه شيئا ، فهي كبرلين الشرقية ، كلاهما لا يعرف أين ذهبت ، وفي أي مكان أنزلت رحالي .

أين ذهب « ليونارد » ؟

هل حطر حاله في يوغوسلافيا ؟

(١) أرغمت السلطات العسكرية الروسية أعضاء الحزب الديمقراطي الاشتراكي على الاندماج مع الحزب الشيوعي الألماني في حزب واحد يسمى حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني S. E. D. وكان ذلك في ٢١ / ٤ / ١٩٤٦ م . ولا زال الحزب الوحيد الذي في كم ألمانيا الديمقراطية حتى اليوم (٣ - م - ش) (٢ - نظام الحكم الشيوعي)

ترددت مثل هذه الأسئلة على الألسنة ، همسا ، ومن وراء حجاب ،
ومر أسبوع وراء آخر ، ولم يسمع أحد شيئا عن أخبار « ليونارد »
فزادت التكهنات ، وانتشرت الشائعات •

وكنت أثناء ذلك كله في بلجراد أكتب بيانا اذاعيا ، ومذكرة عن
الأسباب السياسية التي دفعتني الى الهروب من المنطقة الألمانية ،
الواقعة تحت الحكم السوفيتي (ألمانيا الديمقراطية) •

تركت برلين الشرقية في ١٢ مارس ، ووصلت الى بلجراد في ٢٥ منه ،
بعد رحلة هروب ، حفت بالمخاطر ، واكتتفها العديد من المواقف المثيرة .
والملاحظات الحرجة ، وبعد وصولي بأربعة أسابيع سجلت في أحد
استوديوهات الاذاعة اليوغوسلافية حديثا ، وضحت فيه معارضتي
لأسلوب مكتب استعلامات الحزب الشيوعي ، في التضليل الاعلامي ،
وتعاطفت مع الشيوعيين اليوغوسلافيين ، الذين أعلنوا في صيف عام
١٩٤٨م ، انفصالهم عن موسكو ، رغبة في تطبيق نظام يتفق وطبيعة
مجتمعهم ، أى أنهم آثروا الاستقلال عن موسكو في تطبيق الاشتراكية
في بلادهم •

لم يستطع زعماء حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني — بعد أن
أذيع حديثي مساء ٢٢ أبريل في الاذاعة اليوغوسلافية باثنتي عشرة
لغة ، ونشر في اليوم التالي في جميع صحف يوغسلافيا — أن يفرضوا
السرية على نبا هروبي ، اذ بعد أربعة أيام — أى في ٢٦ أبريل ١٩٤٩ —
نشرت الجريدة الرسمية لحزب الاتحاد الاشتراكي الألماني قرار
الجنة المركزية بطردى من الحزب •

ثم بدأت أعمال هيستيرية ، تسببت في اصابة جو المعهد العالى
للدراسات الاشتراكية بحمى لم تهدأ ناراها وتسكن ، الا بعد أن أصابت
جميع أفرادها ، اذ تعاقبت الاجتماعات ، ما انقض واحد الا ليجتمع
الأخر . بحثا عن شركاء « ليونهارد » الهارب في التفكير ، أو الشعور
دمن لا يدينون بالولاء الكامل للماركسية ، فتعرض الدارسون لسلسلة
من الاجراءات ، من استدعاءات للمثو ، أمام المحققين ، وأسئلة ، وتحقيقات
على انفراد محاولين الكثف عن له ميول لمذهب « ليونهارد » الذى
لم يعلن عنه الا عند هروبه ، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، اذ
صدر الأمر — بعد مدة قصيرة — باتخاذ اجراءات أكثر صرامة ،
ألا وهى تسريح جميع الذين درسوا على « ليونهارد » في المعهد ،

وتوزيعهم على كليات أخرى ، ورفض كل المقترحات التي قدمتها بصفتي
مدرسا في المعهد — للتهوض بالدراسة ، ورفع مستوى الدارسين ، مع
تقرير ما يناقضها على طول الخط ، بصرف النظر عن مراعاة المصلحة
العامة ، فعلى سبيل المثال :

كنت قد أوصيت أن يعين خريجو المعهد في المعاهد العلمية . رفضت
هذه التوصية وأرسل الخريجون الى الأقاليم ليخدموا في أجهزة
الحزب .

ألقى « هاينز ابراهام » — وهو مدرس في المعهد تلقى دراسته في
الاتحاد السوفيتي ، وكان يطلق على نفسه « اليلشفي المتعصب » —
عدة محاضرات في المعهد تحت عنوان « حول مسألة ليونهارد » .

تكرر عقد الاجتماعات لسماع النقد الذاتي من كل انسان كانت
له بى صلة قريبة — أيا كانت نوع هذه الصلة — وتطرق الحديث
أثناءها الى ذكر أحاديث للسمر التي كانت تدور بيننا في أمسياتنا ،
سواء كان ذلك « نكاتا » أم حل ألغاز ، أو غير ذلك مما يدور عادة
بين المتسامرين ، فقد ذكروا — على سبيل المثال — أنني استعملت
كلمة « كومينفورم » تلك الكلمة التي لا يتلفظ بها — فيما يزعمون —
الا المحرض على العصيان ، لأن الاسم الرسمي هو « مكتب استعلامات
حزب العمال الشيوعي » (١) فتسميتي له بـ « كومينفورم » كان — على
حد قولهم — استهزاء به ، واستخفافا بالمؤسسات الشيوعية ، كانت مثل
هذه الأشياء موضع نقاش في اجتماعات استمرت ساعات ، لأنهم
اتخذوها « دليلا على الموقف العدائي للحزب » وأكد خطباؤهم مرارا ،
وتكرارا — لدرجة الملل — أن عدم التيقظ في جهاز الحزب ، حال دون
اماطة اللثام عن « ليونهارد » وبيانه على حقيقته في الوقت المناسب .

حدث هذا كله ، لأنني كنت قد أعطيت منشورات الحزب الشيوعي
اليوغوسلافي لبعض مدرسي ، وطلبة المعهد العالي ، ليطلعوا عليها ،

(١) أنشأته الأحزاب الشيوعية الأوروبية في عام ١٩٤٧ م في بلجراد —
تحت زعامة الحزب الشيوعي السوفيتي — لتبادل المعلومات ، ولإسنادة
بعضها البعض ضد الرأسمالية الغربية ، انتقل مقره الى بورخارست في عام
١٩٤٨ م ، بعدما وقع الخلاف بين يوغوسلافيا وروسيا ، ثم حل في ابريل
سنة ١٩٥٦ م . (م . شامة) .

وكان خوف زعماء حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني من هذه المنشورات .
بالغا ، لأنهم كانوا مرغمين على السير في فلك الاتحاد السوفيتي ، لدرجة
أنهم كانوا يخشون غضب الروس إذ بدا أنهم قصروا في احكام الحصار ،
ضد الآراء التي تخرج عن هذا الخط .

كان غضب زعماء الاتحاد الاشتراكي له أسبابه ، فلأول مرة يهرب
أحد قادة الحزب الذي قضى عشر سنوات في الاتحاد السوفيتي ، نشأ
في جو شيوعي ، وتربى في مدارس ماركسية ، وتدرج في الحايا الشيوعية
حتى وصل الى مركز القيادة .

سوف أتحدث في هذا الكتاب عن :

— تجاربي أثناء اقامتي في الاتحاد السوفيتي — عن ١٩٣٥ الى
١٩٤٥ — ونشاطي مدة أربع سنوات — من ١٩٤٥ الى ١٩٤٩م —
كداري في الجهاز المركزي لزعماء الاتحاد الاشتراكي الألماني .

— المدارس السوفييتية ، وجامعاتها ، والطلبة ، وأعضاء منظمة
« الكمسمول » (١) .

— موسكو وقت اندلاع الحرب ، والحياة زمن الحرب في مدينة
« كاراجندا » .

— تثقيف القادة الأجانب في « مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية
العالمية » .

— اللجنة القومية المسماة « ألمانيا الحرة » .

— « مجموعة أولبريخت » التي وصلت الى ألمانيا في مايو سنة
١٩٤٥م .

— الخطوات الأولى للسياسة السوفييتية في ألمانيا بعد الحرب .

— تكوين نظام دولة القطاع السوفييتي في ألمانيا .

— الحزب الوحيد الذي يتولى السلطة في القطاع السوفييتي ،

ويحدد مضير ١٨ مليون نسمة فيه .

لم يكن الغرض من تناول هذه النقاط ، تلبية للبواعث التقليدية
المعروفة ، الى شرح جوانب نظام « ستالين » ، وتوضيح السياسة

(١) منظمة تعد الشباب — من سن ١٤ الى ٢٦ — اعدادا خاصا يهيئهم

للدفاع عن الايديولوجية الشيوعية . (م . شاهة) .

السوفييتية ، التي لم يعرف عنهما شيء حتى الآن (١) إلا النزر اليسير ، بل كان الدافع الأول نابعا من الرغبة في أن أبين للإنسان الذي يعيش خارج الاتحاد السوفييتي :

كيف يفكر الجيل الجديد من قادة الحزب الشيوعي ، الذي أعد أفراداه اعدادا خاصا في المعسكر الشرقي !

وماذا يشعر !

وكيف يحكم على الأشياء ، ويفهم الحوادث الجارية حوله !

والى أين يتجه نقده !

لقد حاولت — وأنا مدرك تماما ما أقدمت عليه — أن أقدم صورة المقابلات ، والمناقشات ، والأحداث ، والتجارب التي عشتها ، كما رأيتها آنذاك ، وتصورتها ، وكما شعرت بها ، وفكرت فيها • وأعتقد أن انقاريء سيفهم من خلال هذا كله ، معنى الكفر بمذهب « ستالين » بالنسبة لإنسان تربى على هذا المذهب ، فهو حكم في قضية الشك أنتى اعترتني سنين طويلة ، وسببت لى من الآلام ، والمضايقات ما ناء به كاهلى • لقد كان صراعا داخليا بين الضمير المتألم ، والمبررات التي تحاول تهدئته ، ولكن عندما وصل المد ، والجزر بين الطرفين الى ذروته ، أغلق باب التراجع ، وعجزت المبررات ، عن كبح جماح صاحب هذا الضمير عن التحرك تجاه الحد الفاصل — وان كان فى أثناء ذلك يعانى من صراع داخلى حاد — الذى يصل من يعبره الى تصور العالم الحر ، عالم لا يسيطر عليه مذهب « ستالين » •
